مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (5)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (5) 2013

" فويرباخ : من اللاهوت النقدي إلى المادية المثالية "

الدكتور منذر شباني*

(تاريخ الإيداع 12 / 6 / 2013. قبل للنشر في 7 / 8 / 2013)

□ ملخّص □

يتناول البحث موقف فويرباخ من الفلسفة الحديثة <**النظرانية** >، فيشرح رؤية فويرباخ للفلسفة الحديثة حتى هيغل، واعتباره لها بمثابة لاهوت معقلن ، وصل الى ذروته مع فلسفة هيغل ،ثم يتحدث البحث ،عن مفهوم الدين عند فويرباخ ، وتحويله للدين الى انثروبولوجيا ونقده، من خلال هذه الانثروبولوجيا ، للدين والاهوت اللذين يقومان بتجريد ماهو واقعي. وبعد ذلك يتطرق البحث إلى طبيعة المفهوم المادي عند فويرباخ ، والمشكلات التي تحيط بالمادية لديه، وبالتحديد استبعاده لمفهوم التاريخ وتعاطيه مع العالم والانسان بوصفهما معطى حسي ، لا بوصفهما نتاج الفاعلية البشرية. ما أدى بفويرباخ وماديته الى الوقوع في مستنقع المثالية . وقد استخدمنا في هذا البحث منهج النقد التاريخي، كما اعتمدنا على المنهج المادي الجدلي التاريخي ، في نقد المادية عند فويرباخ وإيضاح مفهوم المادية المثالية من خلال النقد الماركسي لفويرباخ .

الكلمات المفتاحية : اللاهوت النقدي ، انثروبولوجيا ، المادية المثالية ، التاريخية .

* مدرس – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (5)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (5) 2013

Feuerbach: From Critical Theology To Idealistic Materialism

Dr. Monzer Shbani*

(Received 12 / 6 / 2013. Accepted 7 / 8 / 2013)

□ ABSTRACT □

This paper deals with Feuerbach's position on theoretical modern philosophy until Hegel, looking at it as theology which had reached its peak with Hegel. It then looks into Feuerbach's concept of religion and his treatment of religion as anthropology, through which he criticizes both religion and theology and their tendency to abstract the real.

The paper then looks into Feuerbach's concept of materialism, and the surrounding problems, particularly his exclusion of the concept of religion, and his treatment of the world and man as 'sensible things', and not as the result of human activity. This has led Feuerbach and his materialism to fall victims in the quagmire of idealism.

In this paper, I have adopted the critical historicist methodology. I have also based on the speculative critical materialism in criticizing Feuerbach's materialism, and exposing the concept of idealistic materialism through Marxist criticism.

Keywords: critical theology, anthropology, idealistic materialism, historicism.

***Assistant Professor, Dept. of Philosophy, Faculty of Arts Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

انشغلت الفلسفة الألمانية في أربعينيات القرن التاسع عشر، بإعداد نفسها كفلسفة نقدية وقد تركز هذا النشاط على نقد الإرث الفلسفي للفيلسوف الألماني أيضاً، هيغل. وقد شهدت تلك الفترة، وبسبب هذا الانشغال، صعود نجم فلاسفة كثر، إلاّ أن صعود نجم هؤلاء كان سريعاً بالقدر نفسه الذي كان فيه سقوطهم مدوياً.

من بين هؤلاء، كان هيغليون يساريون ، و هيغليون يمينيون، وماديون، ولاهوتيون تقليديون، ولاهوتيون نظريون، ومن بينهم أيضاً كان فويرباخ . الذي هو موضوع بحثنا هنا، والذي أتم فلسفته كجزء من النشاط النقدي المذكور، والذي تُجمع المصادر والمراجع، على أنه قدم ما يميزه عن غيره من فلاسفة المرحلة المشار إليها، وأنه مثل إعادة إحياء للمادية هذه المادية التي حاول من خلالها أن يشهر سلاح النقد بوجه المثالية عموماً وبوجه هيغل تحديداً. وقد انطلق في نقده من مقدمة كبرى مفادها أن الفلسفة كل الفلسفة الحديثة، حتى هيغل، ليست سوى اللاّهوت وقد صيغ بشكل فلسفي ، اللاّهوت وقد عُقلن ، اللاّهوت بلبوس الفلسفة. وهو ما يخوض فيه البحث، أفقاً وعمقاً ، نظرياً ومنهجياً. في محاولة للكشف عن الادعاء الكلاسيكي ، والذي غزى كتب الفلسفة ، فيما يخص النقد "المادي" الفويرباخي ، لكل الفلسفة المذكورة، وتالياً ، لكل اللاّهوت، بكل أشكاله ، وخصوصاً اللاّهوت النظري أو النظراني.

إلاّ أن البحث الذي بين أيدينا ، والحال كذلك ، ما لبث أن وجد نفسه ، أمام أطروحات فويرباخية مثيرة للنقد ، الأمر الذي قاد البحث على دروب هذا النقد ، فلا الادعاءات التي أحاطت بفلسفة فويرباخ ، وقدمته كناقد حاسم للدين واللاّهوت ، أرضت شغفنا النقدي ، – وهو زعم نزعمه ونترك أمر البت فيه لمساجلات نعتقد أن النقد قد يثيرها – ولا نحن استطعنا أن نجد في فلسفة فويرباخ ، ما يثبت أنه استطاع أن ينجز الدور الذي ألزم نفسه وفلسفته به .

وما نذكره الآن سيجد أدلّته في متن البحث ، فإذا كان فويرباخ ، قد قدم نفسه وفلسفته في سياق نقده للفلسفة الحديثة بوصفها فلسفة لاهوتية ، فإن فلسفته بدورها انتهت إلى المصير نفسه . وبالقدر الذي قدّم فيه نفسه كفيلسوف مادي، فإنه انتهى كمادي مثالي. وحتى عندما قدّم نفسه كمضاد لهيغل ، فقد انتهى كشبيه له ومثالي ولكن على طريقته.

إذا كان فويرباخ ككل فلاسفة الحقبة التي جاء فيها ، قد سطع نجمه بقوة فإن سقوطه كان أيضاً مدوياً، وإذا كان هذا البحث ، بما له وما عليه ، قد استطاع أن يكشف عن طبيعة ومصير فلسفة فويرباخ ، فإنه لا ينكر عليه ذلك الصعود ولا ذلك السقوط.

أهمية البحث وأهدافه:

إذا كان لهذا البحث من أهمية فهي أنه بحث تتعدد مسوغاته بتعدد الاتجاهات التي يمثلها ، ففي هذا البحث تلتقي اتجاهات كبرى ، تمحور تاريخ الفلسفة حولها، كالمثالية من جهة ، والمادية من جهة أخرى ، وما بين هذين الاتجاهين تعايشت وتصارعت مدارس وإيديولوجيات ونظريات معرفة ومناهج . وتأتي فلسفة فويرباخ كجزء من هذا السجال، والصراع المعرفي والمنهجي والإيديولوجي.

وطالما أن الأمر كذلك ، فإن لهذا البحث أهدافاً كثيرة تحاول ، ليس فقط ، الكشف عن معنى المثالية ومعنى المادية ، بل ودور كل منهما في صياغة الأفكار والنظريات ، حتى السوسيولوجية منها. وعلاقة كل منهما بالأخرى ، وبالحلول المبتكرة لدى كل منهما للقضايا الفلسفية كافة. وفي هذا السياق فإن فلسفة فويرباخ تمثّل تكثيفاً لكل ما ذكرنا حول المادية والمثالية ، وهذا بحد ذاته يمكن اعتباره هدفاً مركزياً للبحث.

منهجية البحث:

كان من الصعب ، والبحث يدور حول المادية ، والمادية المثالية ، أن نعتمد منهجاً بعينه ، فواقع الأمر أن البحث هو بحث في المناهج ، فالمثالية كما المادية ، ليست سوى منهجاً. كما أن المشكلات التي يتعرض لها البحث ، هي في صميمها مشكلات منهجية. ومع ذلك فقد اعتمدنا منهج النقد التاريخي في معظم القضايا البحثية التي تناولناها، إلا أننا لم نخفِ تعاطفاً منهجياً مع المنهج المادي الجدلي التاريخي ، الذي وجّه نقداً لمادية فويرباخ، حاز في الماضي ولا يزال ، أهميته على صعيد ما نحن مقبلون عليه ، مما اضطرنا إلى اعتماده كجزء من معالجتنا لمادية فويرباخ.

النتائج والمناقشة :

- **الفلسفة النظرانية أو "اللاهوت مُعاداً ".**

تكشف الأعمال الفلسفية لفويرباخ عن انهماك حتى الرمق الأخير، بمعالجة قضايا الدين واللاّهوت ، فليست الأعمال الرئيسة مثل "**فلسفة المستقبل**"، و "**أطروحات مؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة**" •، من بين أعمال فويرباخ بمنأى عن هذا الانهماك ، كما أنها ليست أقل أهمية في هذا الصدد ، من أعماله الأخرى التي حملت عناوين "**ماهية المسيحية**" و"**أصل الدين**" و "**ماهية الإيمان لدى لوثر**" والكثير من المقالات التي كتبها فويرباخ حول الدين واللاّهوت بشكل مباشر.

وبهذا الشأن يمكن مراجعة الاعتراف الذي يدلي به فويرباخ ، فيما يخص الترابط التام بين كتابيه " **جوهر المسيحية** " و " **مبادئ فلسفة المستقبل** "[1] وهو ما يؤكد زعمنا ، ذلك أن فويرباخ في "الأطروحات المؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة" كما في كتابه "**فلسفة المستقبل**" لم يتوقف لحظة واحدة عن الخوض في مسائل اللاّهوت والدين ، حتى وإن بدا أنه يتحدث عن الفلسفة وإصلاحها، ونظرته لفلسفة المستقبل أو ما بعد المثالية الألمانية . ففي الأطروحات المؤقتة يتحدث فويرباخ عن **الفلسفة النظرانية** • التي ليست سوى لاهوت نظراني[2] يوقعن الجوهر الإلهي ، وهو بذلك يتناقض مع ما يسميه فويرباخ اللاّهوت العادي •، وإذا كان ما يقصده فويرباخ من أن الفلسفة النظرانية كانت قد جعلت الجوهر الإلهي دنيوياً وأنها بذلك تكون قد صححت اللاّهوت العادي، فإن ذلك لا يغير من واقع الحال شيئاً. وهو أن الفلسفة النظرانية التي بدأت مع سبينوزا واكتملت مع هيغل[3] لم تكن سوى لاهوتاً معاداً. وما وجدناه في الأطروحات المؤقتة ، نعثر عليه في "**مبادئ فلسفة المستقبل**" حيث الفلسفة النظرانية ، والكلام هنا لفويرباخ هي: "الإنضاج والحل

• تجدر الإشارة إلى أن كتاب "أطروحات مؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة" وكذلك "مبادئ فلسفة المستقبل" قد جمعا معاً في نسخة واحدة، تحت عنوان "مبادئ فلسفة المستقبل" وقد ترجمها الياس مرقص وقدم لهما بمقدمة طويلة، ولذلك فإن ما سيرد من اقتباسات مأخوذ عن هذه الترجمة و بأرقام الصفحات نفسها .

[1] – لينين ، الدفاتر الفلسفية ، ترجمة : الياس مرقص ، دار الحقيقة ، بيروت ، ج 2، ط2 ، 1983، ص53.

• للأمانة العلمية ، فقد أثرنا أن نستخدم اللفظ كما ترجمه الياس مرقص للفلسفة الحديثة بالنظرانية ، والتي نعتقد أنها ترجمة دقيقة تفيد ما يقصده فويرباخ حول الطابع التأملي لتلك الفلسفة .

[2] – فويرباخ، لودفيغ، أطروحات مؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة، ت الياس مرقص، دار الحقيقة ، بيروت، 1975 ، ص189.

• اللاّهوت العادي : أي اللاّهوت الذي تشكّل في قلب المسيحية الكاثوليكية ، والذي بني على فكرة لاهوت المسيح ، وهو نفسه الذي تمحورت حوله أفكار القرون الوسطى منذ أوغسطين .

[3] – المكان نفسه.

العقليان النظريان للإله الذي بالنسبة للدين هو متعال وغير موضوعي".[4] وإذا كانت الفلسفة النظرانية هي ما هي عليه ، فإن فويرباخ في الأطروحات وفي مبادئ فلسفة المستقبل ، لا يقدم نقداً للاّهوت فحسب، بل ومن خلاله يقدم نقداً للفلسفة ، وهو بذلك يكون قد كشف عن الطابع التأملي الصوفي لكل تلك الفلسفة ، وهذا ما لاحظه ماركس وما اعتبره إنجازاً أصيلاً لفويرباخ خصوصاً عندما ركّز هذا الأخير على ضرورة أن "تهبط الفلسفة من سماء التفكير النظري إلى مناطق الشقاء الإنساني"[5] والتعبير هنا لماركس طبعاً.

إلا أننا الآن نُشيح بوجهنا عن مديح ماركس لفويرباخ ، كما ورد في مؤلفه " **الأسرة المقدسة** " ونرجئه إلى حينه ، ونواصل هنا تتبع عملية النقد التي أشرنا إليها ، نقد الفلسفة النظرانية ، بوصفها لاهوتاً معقلناً، لنجد أن نقد فويرباخ هذا لا يبقى على المستوى المعرفي لتلك الفلسفة ، بقدر ما أنه يبدأ بإثارة نوع من التهديد ، وهو تهديد يتجاوز النقد المعرفي للفلسفة النظرانية ليطالها على مستوى المنهج ، ما يفضي في النهاية إلى ما ندعوه بالزوبعة النقدية الفويرباخية التي ستطال أركان الفلسفة النظرانية ، خصوصاً في مرحلتها الهيغلية . ذلك أن فويرباخ لدى تناوله لفلسفة سبينوزا، فإنه يصفها بالفلسفة الحلولية وهو لا يرى في الحلول سوى "نفي اللاهوت من وجهة نظر اللاهوت"[6] وتالياً فإن الفلسفة النظرانية السبينوزية ليست إذاً سوى لاهوتا معاداً أيضاً . وبالرغم من أن بعض الباحثين يعتقدون بأن فويرباخ كان قد تأثر بمادية سبينوزا[7]. إلا أن هذا الرأي ، إذا كان مصيباً ، فإنه يترك لنا إمكانية التأكيد على ما أثرناه للتو ، حول نقد فويرباخ المنهجي وكذلك الخلاف الذي نستطيع أن نتلمّس بداياته منذ الآن حول الطابع المثالي "الميتافيزيقي" لفلسفة سبينوزا ، ومما يعني إن نقد فويرباخ للنظرانية ، لم يعد متعلقاً بطابعها اللاهوتي فحسب ، بل أكثر من ذلك فإن هذا النقد ، بما أنه تجاوز النسق المعرفي إلى النسق المنهجي ، فإنه يأخذ بالتحول إلى نقد الطابع المثالي لتلك الفلسفة عموماً. ولكن فويرباخ لا يقوم بقفزته تلك دفعة واحدة ، ومعاركه التي يخوضها ضد النظرانية تبقى إلى حين معارك تدور رحاها على أرض اللاّهوت . واليوم ومن موقع التراكم التاريخي ، وبعد الإنجاز الماركسي المتمثل باكتشاف المادية الجدلية التاريخية، يبدو أن فويرباخ ربح على أرضية اللاهوت ما خسره على أرضية المادية ، وهو أمر سيتضح مع تقدم البحث في معالجة هذه الناحية . لكننا الآن وهنا ، لا نريد فقط أن ندلل على نقد النظرانية ، وما يفعله النقد الفويرباخي بجعله هذه الفلسفة "النظرانية" للاهوت معاداً ، بل ونبتغي أكثر من ذلك ، أي التركيز على الإرهاصات الأولى للنقد المنهجي الفويرباخي لهيغل نفسه . فما من تمايز ، كما يرى فويرباخ ، بين هيغل وسبينوزا سوى أن الأول كان قد نفخ روح المثالية في الشيء الجامد[8]. وهذه الملاحظة الفويرباخية ليست سوى، أول الرقص ، كما يقال ، والنقد بهذا الصدد سيمضي إلى حدود قصوى ، حتى أن فويرباخ لن يترك مجالاً للتراجع أو على الأقل ، فإن فويرباخ إذ يصل إلى قمة نقده للفلسفة النظرانية ، فإنه لن يستمر طويلاً في مكوثه على قمة هذا النقد ، كما سنرى ، فإذا كان سبينوزا قد جعل المادة واقعاً ماهوياً إلهياً ، فإن هيغل سيجعل من الوعي جوهراً إلهياً[9]. مما يشير إلى أن الفلسفة النظرانية كانت قد مكنت اللاّهوت من نفسه ، بأن جعلت من المادة والوعي ، معاً وبضربة ، واحدة ، لاهوتاً بصفة

---

[4] – فويرباخ، لودفيغ، مبادئ فلسفة المستقبل، ت : الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت ، 1975 ، ص227 .

[5] – ماركس،كارل ، إنجلز، فريدرك ، الأسرة المقدسة أو نقد النقد النقدي، ت : رزق الله هيلان، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1975 ، ص71.

[6] – فويرباخ، لودفيغ، أطروحات من أجل إصلاح الفلسفة، مصدر مذكور، ص191.

[7] – فويرباخ، لودفيغ، مبادئ فلسفة المستقبل، مصدر مذكور، مقدمة الترجمة ، ص16 .

[8] – فويرباخ، لودفيغ، أطروحات من أجل إصلاح الفلسفة، مصدر مذكور، ص90 .

[9] – المصدر نفسه ، ص191.

عقل أو منطق ، وبتعبير فويرباخ، فإن المنطق وتحديداً منطق هيغل ، " ليس سوى اللاّهوت معاداً إلى العقل وإلى الحاضر اللاّهوت مجعولاً منطقاً ".[10]

ومنذ اللحظة تبدأ ما ندعوها المماحكات المنهجية ، بشق طريقها لتصبح مضايقات وتهكمات ، وأكثر من ذلك لتغدو احتجاجاً فويرباخياً على هيغل ، وهو احتجاج وإدانة في ذات الوقت. إدانة صريحة لهيغل الذي يخترع منطقاً يشكّل مع اللاّهوت توأماً سيامياً، ونص الإدانة الكاملة ننقله بالكامل كي نقطع الطريق على أي تأويل أولاً ، ولكي تكون كلمات فويرباخ دليلاً عليه كما هي دليل ضد هيغل ثانياً . حيث يقول فويرباخ:" كما أن كائن الثيولوجيا الإلهي هو الخلاصة المجردة أو المثالية لكل الواقعيات ، لكل التحديدات ، لكل الكينونات المحدودة، كذلك المنطق. كل ما هو كائن على الأرض نعثر عليه في سماء اللاّهوت ، كذلك كل ما هو في الطبيعة يظهر في سماء المنطق الإلهي: الكيف، الكم، القياس، الجوهر، الكيميائية، الميكانيكية، العضوية . في الثيولوجيا، كل شيء معطى لنا مرتين ، مرة تحت الشكل المجرد ، ومرة تحت الشكل العياني . في فلسفة هيغل، كل شيء معطى لنا مرتين، مرة كموضوع للمنطق، ثم من جديد كموضوع لفلسفة الطبيعة والروح ".[11] وفي هذه الإدانة وهذا النقد تجاوز فويرباخ مرحلة النقد المؤسس على وجهة نظر الفلسفة التأملية المثالية ، أي أنه كان قد تجاوز مرحلة التبرير والتحليل للفلسفة الهيغلية.[12] كما وصفها نقاد فلسفة فويرباخ ، وتالياً فإن التناول النقدي لمنطق هيغل، وإبرازه على هذا النحو، هو في حقيقة الأمر تتويجاً لنقد كل الفلسفة النظرانية ، هذا النقد الذي يأخذ على عاتقه أن يكشف عن لا إنسانية ، ليس فقط اللاّهوت العادي كما يسميه فويرباخ ، بل وكذلك عن لا إنسانية اللاّهوت الفلسفي النظراني ، فالاثنان معاً يخلعان الإنسان بالدرجة الأولى ، " فكما أن اللاّهوت يبدأ بشطر وخلع الإنسان لكي يعيد فيما بعد إعلان تماثل جوهره المنخلع مع نفسه ، كذلك هيغل يبدأ بتجزئة ونثر الجوهر البسيط المتماثل مع ذاته ، جوهر الطبيعة والإنسان ، لكي يجمع فيما بعد بالقوة ما كان قد فصله بالقوة" .[13] وبهذا الشكل فإن الفلسفة الهيغلية بوصفها لاهوتاً معاداً أو لاهوتاً ممنطقاً ، فإنها كانت قد مضت في الطريق نفسه الذي اتبعه اللاّهوت العادي ، وهو الطريق الذي سار فيه مستبعداً الإنسان ، وهذا هو المأخذ الأساسي لفويرباخ، على اللاّهوت بكل أنواعه ، كما أن استبعاد الإنسان من مثالية هيغل هو بالضبط المنفذ الذي تسرب من خلاله نقد فويرباخ لكل الفلسفة المثالية الألمانية ، ممثلة بفلسفة هيغل . وهذا بالطبع هو النقد الذي بدأه فويرباخ لهيغل منذ كتابه "**نقد الفلسفة الهيغلية**" خلال كفاحه ضد المثالية ، عندما رأى أن الهيغلية ليست إلا المسيحية معبّراً عنها بشكل عقلي.[14] وجدير بالذكر هنا أن التعليق الذي يورده لينين على موقف فويرباخ هذا ، يمتلك دلالة كبرى بشأن تحفظات المادية التاريخية على فلسفة فويرباخ ، إذ يضيف لينين تعليقاً هو في صلب تلك التحفظات ، عندما يقول " إن موقف فويرباخ من هيغل هو موقف أحادي الجانب" [15]، وفي هذا إشارة إلى تنصّل الماديين التاريخيين من موقف فويرباخ وحصره بهذا الأخير فقط ، وهو أيضاً ما سيعلن عنه إنجلز بشكل أكثر وضوحاً ، في كتابه "**لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية**" ، عندما يكشف عن فقر فويرباخ أمام هيغل بخصوص مسائل كثيرة منها ،على سبيل المثال ، ما يقدمه هيغل في ميدان الأخلاق ورؤيته للشر كقوة محركة للتطور التاريخي، في حين أن فويرباخ لم

---

[10] – المصدر نفسه، ص193.

[11] – فويرباخ، لودفيغ، أطروحات مؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة، مصدر مذكور ، ص193.

[12] – Eugen, kamenka ,the philosophy of Ludwig Feubach, London, Routledg 1970, P.70

[13] – فويرباخ، لودفيغ، أطروحات مؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة، مصدر مذكور، ص193.

[14]– لينين، الدفاتر الفلسفية، ت: الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، 1983، ج1، ط4، ص102.

[15] – المكان نفسه .

يتطرق إلى التاريخ، فهو يكتفي بالحديث عن الإنسان المفطور على السعي إلى السعادة وهو السعي الذي يجعله أساساً للأخلاق.[16]

وفيما يخص نقد المادية التاريخية لفويرباخ ، نشير إلى أننا سنأتي عليه في حينه، ولكن ما ذكرناه الآن إنما يأتي في سياق النقد المنهجي الفويرباخي لهيغل ، وشراسة هذا النقد الذي عرّض فويرباخ بدوره لهجوم نقدي حاد جعله ، كما ذكرنا ، يقلل من مكوثه على قمة إنجازه النقدي "المادي" للمثالية عموماً ولهيغل خصوصاً.

إذ إن فويرباخ خلال فعله النقدي كان قد أوصل اللاّهوت النظراني إلى مستوى اللاّهوت العادي ، من حيث أن اللاّهوتين معاً ليسا سوى إيماناً بالأشباح فإذا كان اللاهوت العادي يجد أشباحه في التخيل الحسي،" فإن اللاهوت النظراني يجدها في التجريد غير الحسي "[17] ، وأن يشير فويرباخ إلى التجريد غير الحسي فإنه بذلك يشمل كل الفلسفة النظرانية منذ سبينوزا ، إلا أنه يهتم بشكل خاص بفلسفة هيغل الذي أسس كما يرى فويرباخ، منظومته الفلسفية كلها على أفعال التجريد . مُغرِّباً الإنسان عن نفسه .[18] وهنا أيضاً يعود فويرباخ ليؤكد على وقوف فلسفة هيغل ضد الإنسان، وأكثر من ذلك فإن فلسفة هيغل، إنما تبدو محاولة لتعميم التناقض المسيحي حول جوهر المسيحية نفسها، وهو ، التناقض القائم بين الحقيقة والوعي، حقيقة المسيحية حسب المسيحيين هو أن جوهرها جوهر إنساني ، لكن حسب وعي المسيحيين أنفسهم فهو جوهر غريب ، غير إنساني.[19] وهذا التناقض يسحبه فويرباخ على الفلسفة الهيغلية ويهاجم هيغل نفسه زاعماً أنه كرّس اغتراب الإنسان عن نفسه ، عندما لجأ إلى التجريد خلال محاولته عقلنة المسيحية. وتالياً إعادة إنتاج اللاهوت المسيحي من موقع الفلسفة العقلية المثالية . ومسألة الاغتراب ، اغتراب الإنسان عند هيغل، نحتاج إلى أكثر مما يشير إليه فويرباخ ، فالدراسات النقدية لمفهوم الاغتراب تشير إلى أن هيغل كان قد استخدم مفهوم الاغتراب ، استخدامات متعددة وبحسب السياق الذي عالج فيه هيغل مفهوم الاغتراب[20]. وبعيداً عن الخوض في مسألة الاغتراب ومفهومه وأنواعه لدى هيغل ، حيث البحث الذي نحن بصدده ليس معنياً به ، فإن فويرباخ، جاهد لإثبات موقفه من الدور الذي لعبته الفلسفة النظرانية ، في إعادة إنتاج اللاهوت، وهو في "**مبادئ فلسفة المستقبل**" كان صريحاً بهذا الشأن ، كما في كتابه **الأطروحات المؤقتة** ، "فالفلسفة الهيغلية هي المثالية على قفاها، المثالية اللاّهوتية ، كما أن الفلسفة السبينوزية هي المادية اللاهوتية."[21] والكلام هنا لفويرباخ الذي يُشيح بوجهه عن كل النشاط النقدي الذي قدمته الفلسفة المشار إليها للاّهوت نفسه ، والنتائج التي وصلت إليها هذه الفلسفة من خلال النقد التاريخي للكتب المقدسة ، كما حصل مع سبينوزا الذي رسم الحدود الفاصلة بين العقل واللاهوت ، وكذلك التضاد بينهما [22]، وأما بشأن هيغل ، فإننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن طريقة فويرباخ الانتقائية في تناوله لفلسفة هيغل، وخصوصاً موقع الدين في تلك الفلسفة ، وكان على فويرباخ أن يتعامل مع هيغل على نحو أكثر عمقاً وأن يأخذ بعين الاعتبار ما يسميه إنجلز الطابع الثوري لفلسفة هيغل، أي الطابع الديالكتيكي لتلك الفلسفة.[23] وإهمال فويرباخ للطابع الثوري للهيغلية ،

---

[16]– ماركس، إنجلز، مختارات ، ت: دار التقدم ، دار التقدم ، موسكو، ب.ت،ج4 ، ص36.

[17]– لينين ، دفاتر الفلسفة،مرجع مذكور، ج1، ص102.

[18]– فويرباخ، لودفيغ، أطروحات مؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة، مصدر مذكور، ص196.

[19] – المصدر نفسه ص197.

[20] – شاخت، ريتشارد، الاغتراب ، ت: كامل يوسف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980. ص73 وما بعد.

[21] – فويرباخ، لودفيغ، مبادئ فلسفة المستقبل، مصدر مذكور، ص271.

[22] – سبينوزا، بندكت دي، رسالة في اللاهوت والسياسة، ت: حسن حنفي، دار التنوير ، بيروت،2005 ،ص360.

[23] – ماركس، إنجلز، مختارات. مرجع مذكور ص42.

ربما وقف حائلاً بين فويرباخ وبين حقيقة معالجة هيغل لقضية الدين ، بل وأكثر ، من ذلك، فإن هذا الإهمال هو الذي قاد فويرباخ إلى نهايات مثالية هي ، على غناها المادي ، لم تصل إلى مستوى الحدث الهيغلي ، ونقصد بذلك الديالكتيك الهيغلي الذي سمح للدين أن يبرز لدى هيغل بوصفه فلسفة للتاريخ . " تدرس اللحظات المختلفة من صيرورة الإنسان عبر إيديولوجياته المختلفة."[24] وإذا كان هيغل قد انطلق في ديناميكيته من الفكر إلى المادة ، أي بمثالية مطلقة، فإن هيغل حتى وهو يفعل ذلك كان قد رأى بأن الوصول إلى المسيحية ، إنما هو نتاج تدرج تاريخي عاشته البشرية أفضى بها إلى اكتشاف نفسها كروحانية ، أي بمثابة حرية ومعقولية في آن.[25] وإن هذه النزعة الهيغلية التي تجعل من الدين فلسفة للتاريخ ، تجعلنا لا نفهم تعثر النقد الفويرباخي لهيغل إلا من خلال أمرين ، الأول هو الإطاحة بالهيغلية من قبل فويرباخ لمجرّد الإطاحة ، والثاني هو التبسيط المفرط في فهم الهيغلية . وفي كلتا الحالتين فإن فويرباخ كان قد فوّت الفرصة عليه ، فرصة الاستفادة من المنهج الهيغلي لتدعيم مزاعمه المادية ، ولتدعيم نقده للمثالية وللنظرانية عموماً بحديها ، المادي والمثالي، ولتجنّب السطحية[26] التي يوصف بها فويرباخ من قبل الماديين التاريخيين كما فعل إنجلز وقبله ماركس.

اللاهوت النقدي والتأسيس للاّهوت الإنساني :

إذا كان فويرباخ في نقده للفلسفة النظرانية ، قد توصّل إلى نتيجة مفادها أن تلك الفلسفة ليست سوى لاهوتاً مُعاداً، وإذا كان النقد المنهجي الفويرباخي قد أفضى به إلى سقوط منهجي ، عندما أشاح بوجهه عن الديالكتيك الهيغلي ودوره في معالجة الدين واللاّهوت عند هيغل ، فإننا هنا معنيون بالبحث في طبيعة نقد فويرباخ للاّهوت النظراني ، خصوصاً وإن فويرباخ كان قد طرح ملاحظات أساسية من أجل إصلاح الفلسفة ، وهو يعني بذلك تخليصها من طابعها اللاّهوتي "الديني" ، ثم مضى بعد ذلك ليتحدث عن فلسفة المستقبل وقد قصد بذلك إنهاء المثالية وإعلان المادية كفلسفة مستقبل بدون تردد.

إزاء هذا الزعم الفويرباخي نشير إلى أن التناول النقدي للأعمال الأساسية لفويرباخ حول **أصل الدين** و**جوهر المسيحية** ، يقودنا إلى تقرير مسألة حاسمة وهي أن هذه الأعمال انتهت بفويرباخ إلى إنشاء لاهوت نقدي ، طالما أن الهدف في العملين المشار إليهما ، كان تصحيح اللاهوت النظراني ، من خلال التناول النقدي للفلسفة الحديثة ، المعتبرة لاهوتاً نظرانياً أيضاً . وهو ما أتينا عليه حتى الآن ، وهذا ما نتلمّسه في كتاب "أصل الدين" منذ الصفحات الأولى ، حيث نجد تعويلاً فويرباخياً على مادية سبينوزا ، من خلال التأكيد على أن الطبيعة هي مصدر الدين، فهو يكتب ، أي فويرباخ "إن هذا الكائن الذي يختلف عن الإنسان ويعتبر مستقلاً عنه ، أو هو الشيء نفسه بالنسبة لله كما هو مقدم في جوهر المسيحية والكائن الذي ليس له طبيعة بشرية ، وليس له صفات بشرية، وبدون فردية بشرية ليس شيئاً إلا الطبيعة"[27]. وهو ما يفصح بشكل قاطع عن تأثر فويرباخ بالمادية السبينوزية ، الذي كان قد أشار بدوره إلى الطبيعة ولكن بوصفها جوهراً أو بوصفها الله ، إلا أن فويرباخ ينزع عن الطبيعة ما أبقاه سبينوزا[28] ونعني بذلك الطابع الميتافيزيقي ، أي ككائن عام أو مجرد أو شخصاً ميتافيزيقياً[29]، وإعطاء فويرباخ للطبيعة هذا الدور المركزي في تحليل

---

[8] – شاتليه ، فرانسوا، هيغل ، ت: جورج صدقني، منشورات وزارة الثقافة ، 1970،ص161.

[25] – المرجع نفسه ، ص162.

[26] – ماركس، إنجلز، مختارات. مرجع مذكور، ص36.

[27] – فويرباخ، لودفيغ، أصل الدين. ت: أحمد عبد الحليم عطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص41.

[28] – سبينوزا، بندكت دي، الأخلاق. ت:جلال الدين سعيد، دار الجنوب، تونس، 1997، ص29 وما بعد.

[29] – فويرباخ، لودفيغ، أصل الدين، مصدر مذكور، ص41، الحاشية.

الدين وطبيعته ، كان قد وجّه ضربة قاصمة للمثالية، بالقدر نفسه الذي أعطى فيه زخماً للمادية ، حيث أنهى فويرباخ تناقضاً حاداً عاشه المثاليون ممن يطلق عليهم اسم الهيغليون الشباب ، والذين أرادوا أن يوفقوا بين المادية الأنجلو– فرنسية والمثالية الهيغلية[30]، وانتصار المادية هذا كان قد جعل من فويرباخ الفيلسوف الأكثر تأثيراً داخل الأوساط الفلسفية الألمانية ، وذلك بالرغم من أن مادية فويرباخ ستشهد صعوداً سريعاً كما ستشهد خيبة أمل منهجية ، إلا أن تأثير فويرباخ بدا واضحاً ، وقد عبر أنجلز عن ذلك عندما كتب:" جميعنا غدونا بلحظة من أنصار فويرباخ. ويمكن للمرء أن يتصور بعد قراءة "العائلة المقدسة" بأية حماسة رحّب ماركس بالمفهوم الجديد وإلى أية درجة رغم كل التحفظات النقدية قد تأثر به ".[31]

وكنا قد أشرنا بدورنا في بداية هذا البحث عن مديح ماركس لفويرباخ . والسنوات التي تقع بين 1841 وحتى 1846، ستعني الكثير بالنسبة لفلسفة فويرباخ ودورها في انبعاث المادية وأثرها على الماديين التاريخيين وعلى رأسهم ماركس.

بكل الأحوال فإن ما أثاره فويرباخ حول الطبيعة في كتابه **أصل الدين** كان قد كرره أيضاً في كتابه **جوهر المسيحية** ، كما أنه في الكتابين معاً كان قد أكد على مسألة الشعور بالتبعية عند الإنسان كمصدر للدين ، ففي كتابه أصل الدين يجعل فويرباخ من الطبيعة موضوع لهذه التبعية[32]، وقد أعاد فويرباخ طرح القضية نفسها في كتابه "**جوهر المسيحية**" عندما تحدث عن علاقة الدين بالوعي الإنساني ، فالشعور الديني هو وعي الإنسان بنمط وجوده الإنساني ، وهذا الوعي هو موضوع الدين[33]. والملاحظة الأساسية هنا هي أن فويرباخ، يجعل من الدين نوعاً من الأنثروبولوجيا ، إلا أن هذا يعزز ما ذكرناه ، من أن فويرباخ يقوم بعملية تصحيح للاّهوت ، وإن كنا نعتقد أن فويرباخ في كتابه أصل الدين ، لا يختلف في لاهوته عن لاهوت الفلسفة النظرانية سوى في تأكيداته المستمرة على فهمه الفيزيائي للطبيعة ولله ، ففي المقطع الحادي عشر من الكتاب المذكور يشرح فويرباخ ما يعنيه بالله ، بشكل واضح وكأنه لا يريد أن يترك مجالاً للشك فيما يذهب إليه حول الطبيعة كمصدر وحيد للدين فهو – على سبيل المثال – يقول: "الله هو كائن يحتوي على الكل وكلي وغير قابل للتغير، ولكنه هو نفسه الشمس التي تشرق على الناس، والكائنات على الأرض، وهو نفسه السماء التي تحتوي عليها كلها وهو الأرض نفسها التي تحملها كلها"[34].

ومن هذا النص يتضح لنا حرص فويرباخ الفيزيائي، المادي ، والذي يذكّر بالمادية الأنجلو – فرنسية ، بالمعنى الفيزيائي للمادية . لكننا، وبالعودة إلى ما أشرنا إليه ، حول الأنثروبولوجيا الدينية أو كما يسميها البعض، الأنسانولوجيا[35]•، فإننا بدورنا نذهب إلى القول بأن أنثروبولوجيا فويرباخ، قد نفخت الروح بمادية سبينوزا، ففي المقطع الثالث والأربعين يكتب فويرباخ: "التأليه أو التوحيد ينبعان فقط من ربط الإنسان للطبيعة بنفسه ، لأن الطبيعة تخضع

---

[30] – ماركس، إنجلز، مختارات، مرجع مذكور، ص17.

[31]– ماركس،إنجلز، مختارات، مرجع مذكور، ص 18.

[32] – فويرباخ، لودفيغ، أصل الدين، مصدر مذكور ص41.

[33] Feuerbach, Ludwing, Essence of Christianity, translated, by Zawar Hanafi, Ancher Books, NewYork,1972, P.98

[34]– فوير باخ، لودفيغ، أصل الدين، مصدر مذكور، ص50.

[35]• بهذا الصدد يمكن مراجعة مقدمة الترجمة لكتابي فلسفة المستقبل وأطروحات مؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة، فالمترجم الياس مرقص كان قد استخدم اللفظ، وهو ترجمة الأنثروبولوجيا التي تترجم عادة بعلم دراسة الإنسان أو الأناسة.

نفسها للإنسان دون إرادة أو وعي، تخضع نفسها ليس لكل ما يحتاجه فقط ووظائفه العضوية وإنما لكل أهدافه الواعية وملذاته وتتبع من حيث يجعل الإنسان جوهر هذه العلاقة وبالتالي يجعل نفسه هدفاً ومركزاً ووحدة للطبيعة"[36].

وهذا النص الفويرباخي يلتقي بنص اسبينوزا الذي يتحدث فيه عن الدور الذي يلعبه الإنسان في تحويل الطبيعي إلى إنساني ، انطلاقاً من الفهم الغائي للسلوك الطبيعي ، إذ يكتب سبينوزا في تذييل الجزء الأول من **كتاب الأخلاق:** "إن جميع الأحكام التي أتعهد بالإشارة إليها هنا متأتية عن حكم مسبّق واحد ، وهو أن الناس يفترضون عموماً أن جميع الأشياء الطبيعية تتصرف مثلهم من أجل غاية بل إنهم على يقين من أن الله نفسه يوجّه كل شيء للإنسان ، وأنه خلق الإنسان ليعبده"[37]. ويمكن أن نلاحظ هنا أنثروبولوجيا سبينوزا بشكل قوي ، إلا أن هذه الأنثروبولوجيا لم تكتمل ، لم تتحول إلى أنثروبولوجيا بالمعنى الفويرباخي ، لأنه لم يخطُ الخطوة التي خطاها فويرباخ ، وهي تلك التي اقتضت إزاحة المفهوم الميتافيزيقي والإبقاء على الفيزيقي فقط . ومن هذا الموقع استطاع فويرباخ أن يدخل في خصومة مع سبينوزا ويدك حصونه بمدفعية اللاّهوت النقدي . ولكننا ومن موقع النقد التاريخي الذي عليه أن يمارس نقده وأن يفعل فعله على الجميع ، نتساءل حول ما إذا كان سبينوزا لم يفكّر على نحو ما فكّر به فويرباخ ، وأيضاً ومن موقع النقد نفسه نستطيع أن نوجّه اللوم والعتاب الشديدين ، ليس فقط لسبينوزا ، وإنما أيضاً لكل الفلسفة العقلانية التي لم تفعل ذلك والتي التزمت الصمت والبلاهة التاريخية حيال مسألة كانت واضحة في أذهان فلاسفتهم ، وهذه المسألة هي التي جعلت فويرباخ ينهال عليهم بالتقريع الشديد عندما كتب مهاجماً كل الفلسفة العقلانية ، ومتهماً كل العقلانيين بضيق النظر والمخاتلة والجبن ، لأنهم لم يحذو حذوه ، ولم يعترفوا مباشرة بأن "الكائن الروحي الذي يضعه الإنسان فوق الطبيعة ويعتقد أنه خالقها وموجدها ليس إلا الجوهر الروحي للإنسان نفسه ، والذي يبدو له رغم ذلك كآخر يختلف عنه"[38].

وبدورنا ومن موقع الإنصاف للفلسفة العقلانية ، لا نجد بدّاً من التذكير بأهمية ما قدمته تلك الفلسفة على صعيد إعادة دور الإنسان إلى وضعه الطبيعي ، كما علينا أن نذكّر بأن تلك الفلسفة التي بدأت في القرن السابع عشر ، كانت الوريث الشرعي للمذاهب الإنسانوية التي سادت عصر النهضة في القرن السادس عشر، وإذا كانت الفلسفة الحديثة قد التزمت بالتعريف الديكارتي وتالياً تحويلها للاّهوت إلى فلسفة[39] ، فإن فويرباخ هنا يتخذ موقفاً مشابهاً لذاك الذي اتخذه حيال مثالية هيغل ، وهو موقف أحادي الجانب وكنا قد أتينا على ذكرها في حينه. هذا عدا عن أن هذا الموقف يدلل على قصور تاريخي لدى فويرباخ. وسبب هذا القصور التاريخي يعود إلى قصور جدلي "منهجي". وهو ما سيأتي عليه البحث في مواقع تالية . لشرح سبب الخيبة المنهجية في مادية فويرباخ وتقهقرها ليس فقط على صعيد الطبيعة بل وكذلك على صعيد مفهوم الإنسان لديه . وبهذا المعنى فإن فويرباخ في نقده للفلسفة النظرانية ، واعتباره لها لاهوتاً معاداً ، كان قد انتهى إلى إنتاج لاهوت نقدي ، وإذا كان أولئك أي فلاسفة الحداثة أو النظرانيين قد قدّموا فلسفة "حذفت الكينونة الإلهية المفصولة والمميزة عن المحسوس ، عن العالم والإنسان وأنها دلّلت على ألوهية الفهم"[40]. فإن الفلسفة الجديدة لفويرباخ قد حاولت الشيء نفسه ولكن على نحو معكوس بحيث أن فويرباخ أنجز نقده للفلسفة

---

[36] – فويرباخ، لودفيغ، أصل الدين، مصدر مذكور، ص91.

[37] – سبينوزا، بندكت دي، الأخلاق، مصدر مذكور، ص76.

[38]– فوير باخ، لودفيغ، أصل الدين، مصدر مذكور، ص92.

[39] – فويرباخ، لودفيغ، مبادئ فلسفة المستقبل، مصدر مذكور، ص263.

[40] – المصدر نفسه، ص262.

النظرانية، محاولاً إبراز الطابع الإنساني للألوهة ، وأن يكون الإنجاز الفويرباخي هو هذا فقط ، فإن ذلك يجعله مجرد مجدد للفلسفة النظرانية ، ومجرد مفسر جديد لقضاياها نفسها، وفلسفته "المادية" لن تكون سوى فلسفة إصلاحية ، وهو أي فويرباخ ، لا يلبث أن يجد نفسه واحداً من الفلاسفة الذين وصفهم ماركس بأنهم "لم يفعلوا غير أن فسروا العالم في حين أن المهمة تتقوم في تغييره"[41]

وإذا كان الأمر كذلك فإن فويرباخ ، بالرغم من أننا نستطيع وصفه بالفيلسوف التقدمي ، إلا أنه ليس تقدمياً تاريخياً ، ونقده للاّهوت ، وخصوصاً للاّهوت المسيحي ، لم يكن سوى محاولة للإبقاء على جوهر اللاّهوت ، وهي ملاحظة ترددت عند الكثيرين من النقاد ، ومن مؤرخي فلسفة فويرباخ ، وبهذا الصدد كان كارل لوفيت قد لاحظ بأن نقد فويرباخ للاّهوت هو بعكس نقد معاصريه "بعكس نقد كل من باور وشتراوس، فإن كتاب "جوهر المسيحية" ليس تهديماً نقدياً للاّهوت المسيحي وللمسيحية ، وإنما هو محاولة للإبقاء على ما هو جوهري في الدين المسيحي ، بعد سكبه في شكل أنثروبولوجيا دينية"[42]. وفي السياق ذاته تصبّ ملاحظة إنجلز الذي يقول: "إن فوي باخ لا يريد مطلقاً أن يُلغي الدين، إنما يريد أن يحسنه"[43].

مما يشير إلى أن فويرباخ إذ حاول أن يقدم نقداً للاّهوت النظري فإنه لم يقدم سوى لاهوتاً نقدياً ، وهو والحال كذلك لم يقم بتهديم اللاّهوت نقدياً، بقدر ما أنه حاول الإطاحة باللاهوت النظري "التقليدي" فحسب .

المادية الإنسانية أو المادية في شكلها المثالي:

تمثّل الملاحظات التي أتينا عليها ، والتي أشرنا فيها إلى موقف الماديين التاريخيين من فويرباخ ومن فلسفته قاعدة انطلاق كبرى ، ننطلق منها الآن في بحثنا لمفهوم المادية لدى فويرباخ ، كما تمثّل الملاحظة التي حددنا فيها الأعوام الممتدة من عام 1841 وحتى عام 1846 والتي شهدت التأثير الذي مارسته فلسفة فويرباخ على مجريات النشاط الفلسفي في ألمانيا ، وتحديداً في مجال نقد المثالية الهيغلية ونقد اللاّهوت النظراني وانبعاث المادية ، محطة هامة نتوقف عندها ، ليس فقط لفهم ما حدث على صعيد الفكر المادي الفويرباخي ، بل وكذلك على صعيد الثورة الفلسفية التي اجتازتها ألمانيا ، هذه الثورة التي يصفها ماركس بأنها الثورة التي جعلت من الثورة الفرنسية مجرد لعب أطفال إذا ما قورنت بها . وبحسب تعبير ماركس فإن هذه الثورة مثّلت "صراعاً عالمياً تبدو صراعات الأولياء تافهة وحقيرة إلى جانبه . فالمبادئ تتزاحم وأبطال الفكر يطيحون ببعضهم البعض بسرعة لا نظير لها ، وفي مدى ثلاث سنوات من 1842 إلى 1845، كُنس قدر من الماضي في ألمانيا أعظم منه في مدى ثلاثة قرون في أماكن أخرى"[44].

ففي عام 1841 ظهر إلى العلن كتاب جوهر المسيحية لفويرباخ[45] ، وقد اعتُبر هذا العمل بمثابة رد فلسفي على مثالية هيغل ، كما اعتبر فويرباخ نفسه فيلسوفاً مادياً يقوم بانقلاب على المثالية ، وقد أثّر فويرباخ بالكثير من الفلاسفة منهم ماركس وإنجلز اللذين كتبا "**الأسرة المقدسة أو نقد النقد النقدي**" تحت تأثير فويرباخ ، فويرباخ المادي الإنساني . وقد تأثر الرجلان به إلى حد أن إنجلز كتب عن فويرباخ مديحاً يكشف عن طبيعة الانقلاب الذي أحدثه هذا الأخير بقوله : "ولكن من هو الذي عرّى لغز النظام إذن ؟ إنه فويرباخ. من هو الذي أباد جدلية المفاهيم ، حرب

---

[41] – ماركس، إنجلز، مختارات، ت: دار التقدم، دار التقدم ، موسكو ، بدون تاريخ، ج1، ص40.

[42] – لوفيت، كارل، من هيغل إلى نيتشه ، ت: ميشيل كيلو، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1988، ص123.

[43] – ماركس، إنجلز، مختارات، ت: دار التقدم،دار التقدم ، موسكو، بدون تاريخ، ج4، ص31.

[44] – ماركس ، كارل ، أنجلز ، فريدريك ، الإيديولوجيا الألمانية ، ت: فؤاد أيوب ، دار دمشق ، بدون تاريخ ، ص21.

[45] – فويرباخ ، لودفيغ، فلسفة المستقبل ، مصدر مذكور، مقدمة الترجمة ، ص9.

الآلهة هذه التي يعرفها الفلاسفة وحدهم ؟ إنه فويرباخ . من إذن الذي وضع ، إن لم يكن معنى الإنسان – كما لو كان للإنسان معنى آخر غير كونه إنساناً – فعلى الأقل الإنسان مكان الحشو الكلامي القديم بما في ذلك الوعي اللامتناهي للذات، إنه فويرباخ ، فويرباخ وحده "[46].

وفي مكان آخر من الأسرة المقدسة كتب ماركس: "عارض فويرباخ الفلسفة الباردة بنشوة البحث النظري ، يوم اتخذ بثبات وللمرة الأولى موقفاً ضد هيغل"[47] . وموقف ماركس هذا ، بل مديحه، يتردد في مخطوطات 1844 عندما يقول: "فويرباخ هو الوحيد الذي اتخذ موقفاً جاداً نقدياً من الجدل الهيغلي وتوصَّل إلى اكتشافات حقيقية في هذا الميدان . إنه في الواقع القاهر الحقيقي للفلسفة القديمة . وإن مدى ما أنجزه ، والبساطة غير المدّعية التي عرض بها على العالم ، ليقفان في تناقض صارخ مع الموقف المضاد"[48] . ومديح ماركس هذا يمتلك من الوضوح ما يساوي الوضوح الذي نعثر عليه لدى فويرباخ ، حين أعلن انقلابه على هيغل ، ومن خلاله على كل الفلسفة الحديثة عندما كتب: " إن فلسفة هيغل هي التي تمثّل تحقق وإنجاز الفلسفة الحديثة . ولهذا السبب فإن الضرورة والتسويغ التاريخيين للفلسفة الجديدة يرتبطان قبل كل شيء بنقد هيغل"[49].

وفويرباخ الذي فعل ذلك حقاً، يبدو أنه لم يفعل غير ذلك ، والمديح النقدي الذي يكيله ماركس له في **الأسرة المقدسة والمخطوطات** سيتكشّف عن أزمة حادة بين مادية ماركس التاريخية ومادية فويرباخ الإنسانية ، وأول ما سيتكشّف ذلك في **الإيديولوجيا الألمانية** ، عندما سيعتبر ماركس أن فويرباخ ليس إلا واحداً من الإيديولوجيين الألمان ، الذين شاركوا في جعل الفلسفة إيديولوجيا ، فويرباخ ورفاقه بوير وشترنر، الذين دفعوا بماركس وإنجلز إلى تأليف الكتاب المذكور ، أي **الإيديولوجيا الألمانية** ، والنقد الموجّه لفويرباخ تحديداً، هو ذلك الذي يتعلق بغياب التاريخ وبالكامل عن المنظومة المادية الفويرباخية ، هذا الغياب الذي أدى إلى غياب المفهوم الثوري لديه ، وهنا يبرز هيغل أكثر أهمية من فويرباخ وهذا أيضاً ما أشرنا إليه سابقاً، ذلك أن غياب التاريخ جعل من فويرباخ مادياً يعتمد في نظريته على حدوس منعزلة ويجعل من فلسفته هو تحديداً فلسفة تأملية إنسانوية وعاطفية مجردة.

وبتعبير ماركس فإن غياب التاريخ عند فويرباخ يجعل من فلسفته فلسفة لا تعدو كونها "حدوساً منعزلة ، وتأثيرها زهيد في مجمل تصوره العام بحيث لا يمكننا أن نرى فيها شيئاً آخر هنا سوى بذور قابلة للنمو"[50]. ويأخذ ماركس على فويرباخ أنه يتحدث كما تحدث من هم قبله ، فهو عندما حول اللاّهوت إلى أنثروبولوجيا ، وعندما هاجم الهيغلية، من خلال استبعادها للإنسان، وعندما نظر إليها بوصفها الفلسفة التي اشتقت اللامحدود من المحدود، وبوصفها جعلت "من الكائن اللامادي ، من الموضوع الخالص ، من كائن الفهم المحض، الكائن الوحيد الحق والمطلق"[51]، عندما فعل فويرباخ كل ذلك، كان في الوقت نفسه يتحدث عن الإنسان بالمعنى المطلق ، عن الإنسان اللاتاريخي ، أو بالمعنى الذي تصوره فويرباخ للإنسان ، وهنا بالضبط يبدو النقد الماركسي ، المادي التاريخي ، هداماً إلى أبعد مدى حيال مادية فويرباخ وإنسانيته، فحول هذه المسألة يكتب ماركس عن فويرباخ: "إنه يقول "الإنسان" بدلاً من أن يقول البشر

---

[46] – ماركس ، كارل ، إنجلز، فريدريك ، الأسرة المقدسة ، مرجع مذكور ، ص 153.

[47] – المصدر نفسه ، ص200.

[48] – ماركس ، كارل ، مخطوطات 1844، ت: محمد مستجير مصطفى ، دار الثقافة الجديدة ، 1974، ص83.

[49] – فويرباخ ، لودفيغ، فلسفة المستقبل ، مصدر مذكور، ص264.

[50] – ماركس، كارل، إنجلز، فريدريك، الإيديولوجيا الألمانية، مرجع مذكور، ص34.

[51] – فويرباخ، لودفيغ، فلسفة المستقبل، مصدر مذكور، ص265.

التاريخيين الفعليين والإنسان هو في واقع الأمر الإنسان الألماني"[52]. وليس الأمر أفضل حالاً بشأن تصور فويرباخ للعالم الطبيعي أو العالم الحسي ، فإذا كان تصور فويرباخ للإنسان ، هو تصور قائم على العاطفة المجردة ، بحسب ماركس، فإن تصور فويرباخ للعالم الحسي ، قائم على التأمل ، مجرد التأمل[53] ، ويشرح ماركس التأمل الفويرباخي في تعاطيه مع العالم الحسي على أنه موزع بين أسلوبين في النظر إلى العالم ، أسلوب عامي لا يدرك إلا ما هو مرئي بالعين المجردة وأسلوب فلسفي يدرك الماهية الحقيقية للأشياء[54]. إلا أنه في الأسلوبين معاً فإن فويرباخ "لا يرى أن العالم الحسي الذي يحيط به ليس موضوعاً معطى بصورة مباشرة منذ الأزل ومشابه لنفسه دون انقطاع ، بل نتاج الصناعة وحالة المجتمع وهذا بمعنى أنه نتاج تاريخي نتيجة فعّالية كاملة من الأجيال"[55] وبوصول ماركس إلى الفعّالية الإنسانية أو الفعّالية البشرية، تكون مادية فويرباخ قد تبخرت تماماً، باستثناء أنها مادية فيزيائية . وإذا كانت ماديته كذلك ، فإن ما قلناه حول تأثر فويرباخ بالمادية الأنجلو _ فرنسية ، يعود ليطفو على السطح ، ويكون ما فعله حيال اللاّهوت النظراني ، أي تصحيحه ، وتالياً كفاحه ضد مثالية هيغل ، يعود هنا ليبرز وكأنه ليس كفاحاً ثورياً بقدر ما هو احتجاجاً ، كما ذكرنا، فعدم رؤية الفاعلية البشرية التي هي فاعلية حسية ، منعت فويرباخ من رؤية الإنسان المتكّون في التاريخ ، كما منعته من رؤية "الطبيعة التي هي طبيعة تاريخية وتاريخ هو تاريخ طبيعي"[56] على حد تعبير ماركس . وما يزيد الطين بلة ، كما يقال ، أن ما كافح فويرباخ من أجله وما اعتبره تفوّقاً على هيغل ، وهزيمة نكراء لهذا الأخير، عاد فويرباخ ليسقط فيه ، ونعني بذلك التجريد . هذا التجريد الذي مثّل حجر الأساس في نقد فويرباخ لهيغل فهو يذكر في **الأطروحات المؤقتة** أن "الروح المطلق لهيغل ليس شيئاً آخر سوى ما يُدعى الروح المحدود ، لكن بعد تجريده ، فصله عن ذاته، تماماً كما الكائن اللامحدد للاّهوت ليس شيئاً آخر سوى الكائن المحدود ولكن مجرداً"[57]. وإذا كان التجريد قد فعل ما فعل لدى المثاليين ، فإن الحال ليس بأفضل لدى فويرباخ المادي الحسي ، الذي لم يستطع أن "يدرك البشر في سياقهم الاجتماعي المعطى ، في شروطهم الحياتية المعطاة التي جعلت منهم ما هم عليه ، بل يتمسك بتجريد الإنسان ، ولا يتوصل إلى الاعتراف بالإنسان الفعلي ، الفردي الذي من لحم ودم إلا في العاطفة"[58] . وهذا النقد الماركسي لمادية فويرباخ لا يُبقي ولا يذَر، وهو يعصف بمادية فويرباخ ، التي عادت لتبقى في سياق النظري والمجرد ، وبقيت الإنسانية لدى فويرباخ، إنسانية مجردة ، ميتافيزيقية وهي فوق الناس شأنها شأن روح العالم عند هيغل[59]، كما يلاحظ كورنو . وهذه الملاحظة بدورها تعيدنا إلى نقد ماركس الثاقب وإلى النتيجة التي ينتهي إليها حيال فويرباخ ، بعد أن يوضح التباين الحاد بين ماديته وبين التاريخ لينتهي إلى القول: "إن فويرباخ في حدود كونه مادياً لا يجعل التاريخ يتدخل قط ، وفي حدود إدخاله التاريخ ، في حسابه، فهو ليس بمادي. إن التاريخ والمادية منفصلان كلياً عنده"[60] . وصار واضحاً أن مسألة التجريد التي هيمنت على مادية فويرباخ، كانت قد جعلته هو وهيغل يلتقيان في

---

[52] – ماركس ، كارل، إنجلز، فريدريك، الإيديولوجيا الألمانية، مرجع مذكور، ص35.

[53] – المكان نفسه.

[54] – المكان نفسه.

[55] – ماركس، كارل، إنجلز، فريدريك، الإيديولوجيا الألمانية، مرجع مذكور، ص35.

[56] – المكان نفسه.

[57] – فويرباخ، لودفيغ،أطروحات مؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة ، مصدر مذكور ، ص 194.

[58] – ماركس، كارل، إنجلز، فريدريك، الإيديولوجيا الألمانية، مرجع مذكور، ص36.

[59] – كورنو، أوغست ، أصول الفكر الماركسي، ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الآداب ، بيروت ، 1968، ص132.

[60] – ماركس ، كارل ، إنجلز، فريدريك ، الإيديولوجيا الألمانية ، مرجع مذكور، ص37.

الموقع نفسه ، فكلاهما اعتمد التجريد ، فقاد هيغل إلى المثالية وفويرباخ إلى المادية . وصار يمكن القول إن مادية فويرباخ لا تعد كونها مادية مثالية ، حتى وإن أشار البعض إلى طابعها الثوري على مستوى النظرية[61] . ومع علمنا أن هذه الملاحظة كانت لماركس في بداية تأثره بفويرباخ، إلا أن النتائج التي انتهى إليها ماركس والتي صاغها في **الأطروحات حول فويرباخ** توضّح بأنه حتى هذه النظرة إلى ثورية مادية فويرباخ على المستوى النظري لم يعد لها من وجود ، وتعليق ماركس بهذا الصدد شديد الوضوح حيث يقول: "إن مسألة ما إذا كان يمكن أن تنسب حقيقة موضوعية إلى الفكر البشري ليست مسألة نظرية بل عملية . فالإنسان يجب أن يثبت في الممارسة حقيقة فكره . أي واقعية هذا الفكر وقوته في هذا العالم وفي هذا العصر. إن الجدال بشأن واقعية أو لا واقعية فكر ينعزل عن الممارسة مسألة مدرسية صرفة"[62]. وواضح أن ماركس يعيد فويرباخ إلى الجدال الذي كان قائماً بين الاسميين والواقعيين ، إلى الفكر المدرسي الذي انتهى قبل هيغل بكثير . فما انتهت إليه مادية فويرباخ هو أنها اعتبرت "الماهية الإنسانية بمثابة نوع فحسب ، من حيث هي عمومية باطنة خرساء وتجمع بصور طبيعية محضة بين أفراد عديدين"[63]. وإذا كان ماركس قد أعاد فويرباخ إلى الوقت الذي كان فيه الخلاف محتدماً حول الواقعية واللاواقعية ، فإن النقد الذي سيقدم عليه إنجلز ، ولكن بعد فترة اختمرت فيها قضايا النقد المادي التاريخي "الماركسي" للمادية الفويرباخية ، إنما هو نقد يشير صراحة إلى خلط معرفي ومنهجي لدى فويرباخ نفسه ، فويرباخ ، الذي بحسب إنجلز، "خلط بين المادية كمفهوم عام عن العالم يقوم على فهم معين للعلاقة بين المادة والروح ، وبين ذلك الشكل الخاص الذي وجد فيه هذا المفهوم عن العالم تعبيراً عنه في مرحلة تاريخية معينة ، هي القرن الثامن عشر"[64] ومادية القرن الثامن عشر هي المادية الميكانيكية (الفيزيائية) وهي في نهاية المطاف مادية ساذجة وضيقة النظر وعاجزة عن فهم العالم بوصفه حركة تطور، حركة تتطور في التاريخ[65]. وهي من هذا الجانب أقرب إلى المثالية منها إلى المادية ، أما عن فويرباخ نفسه فإن مثاليته كما يرى إنجلز تتكشف أكثر ما تتكشف في مجال الأخلاق والدين . "فالدين بالنسبة له ، أي لفويرباخ، علاقة قلبية بين الإنسان والإنسان قائمة على العاطفة"[66]. وأيضاً هنا لا يتعامل فويرباخ مع الدين، بطابعه الاجتماعي ، فهو "يحل الماهية الدينية في الماهية الإنسانية وينسى أن ماهية الإنسان ليست تجريداً لاصقاً بكل فرد على حده ، بل هي في واقعها جُماع العلاقات الاجتماعية"[67]. ومرة أخرى لا تحسب مادية فويرباخ للتاريخ حساباً ، وهي تجعل أساس الدين العاطفة ، وليس التكوّن التاريخي السوسيولوجي للإنسان ، ولا ينتبه فويرباخ هنا ، والحديث لماركس " إلى أن الروح الديني هو نفسه نتاج اجتماعي ، وأن الفرد المجرد الذي يحلله ينتمي في واقع الأمر إلى شكل اجتماعي معيّن"[68] وما يطال الدين عند فويرباخ ، يطال الأخلاق ، حيث تتجلى مثاليته بقوة ، فهو في **فلسفة المستقبل** ، في فلسفته الجديدة يقول: "الفلسفة الجديدة تجعل من الإنسان موصولاً بالطبيعة (بوصفها قاعدة الإنسان) الموضوع الوحيد، الكلي والاسمى ،

---

[61] – خليفة، فريال حسن ، نقد فلسفة هيغل ، دار التنوير، بيروت ، 2006، ص153.

[62] – ماركس ، كارل ، إنجلز، فريدريك، الإيديولوجيا الألمانية ، مرجع مذكور، ص651.

[63] – المرجع نفسه ، ص652.

[64] – ماركس، إنجلز، المختارات ، دار التقدم ، موسكو، مرجع مذكور، ج4 ، ص24.

[65] – المرجع نفسه ، ص 25.

[66] – المرجع نفسه ، ص31 .

[67] – ماركس، كارل ، إنجلز، فريدريك ، الإيديولوجيا الألمانية ، مرجع مذكور، ص652.

[68] – ماركس، كارل، إنجلز، فريدريك، الإيديولوجيا الألمانية، مرجع مذكور، ص652.

للفلسفة ، إذن تجعل من الأنسانولوجيا موصولة بالفيزيولوجيا ، العلم الكلي"[69]. والأخلاق التي يقيمها فويرباخ بناءً على هذا الفهم للإنسان الكلي جاءت كلية بالطبع ، فهو أي فويرباخ ، يعود ليقول: "الفن ، الدين ، الفلسفة ، أو العلم ، ليست سوى ظاهرات أو كشوفات الكائن الإنساني الحق ، وحده إنسان ، إنسان محقق وحق ، من يملك الحس الجمالي أو الفني ، الديني أو الخلقي ، والفلسفي أو العلمي. وحده إنسان بشكل مطلق من لا يطرد أو يستبعد من ذاته أي شيء مما هو، جوهرياً، إنساني"[70].

ولا يشرح فويرباخ ما الذي يعنيه بالإنسان تماما ً، كما لا يشرح ما الذي يعنيه بالطبيعة ، ولهذا فإن نظرية الأخلاق عنده مفصّلة لجميع الأزمنة ، ولجميع الشعوب ، ولجميع الأوضاع ، ولهذا السبب فهي ليست صالحة للتطبيق في أي وقت وفي أي مكان"[71]. وبهذا المعنى فإن مادية فويرباخ ، خانت نفسها . ونحن إذ نأتي هنا على نقد ماركس والمادية التاريخية عموماً لفويرباخ، فلأن مسألة مهمة نجدها تتجذر في هذا النقد وهي أنه نقد للنقد ، نقد نقد فويرباخ لهيغل ، وفي هذا ما يُبرز بوضوح مواضع خيانة فويرباخ لنفسه، خيانة ماديته لنفسها ، من حيث أن نقد فويرباخ لهيغل، أفضى به في نهاية المطاف إلى مادية أطاحت بالحياة الحقيقية ، حياة البشر الفعليين لصالح مفاهيم مجردة عنهم ، لصالح وعي زائف لم ينتظر طويلاً إلى أن كشف النقاب عن وجهه .

خاتمة:

حاولنا في هذا البحث بقدر ما سمحت لنا مساحته أن نناقش ، ومن موقع النقد المعرفي والمنهجي ، مفهوم اللاّهوت والمادية عند فويرباخ ، وكان أن وجدنا أنفسنا ، وجهاً لوجه ، أمام جملة من المسائل التي أفضت مناقشتنا لها إلى نتائج عدة كان أهمها الكشف عن العلاقة المعقدة بين نقد فويرباخ لهيغل ، ثم نقد المادية التاريخية لكل من فويرباخ وهيغل سواء كان هذا النقد ، نقد كل منهما على حده ، أم نقد أحدهما من خلال الآخر، ونعتقد أن ترصّد هذه العلاقة المعقدة بين المثالية والمادية المثالية ، ثم المادية التاريخية كان هدفاً ، بقدر ما كان وسيلة ، وكان دافعاً منح هذا البحث ما غدا عليه .

ولا يفوتنا أن نؤكد على أن هذا البحث يتسع لأكثر مما قدمناه إلا أن النقاط التي أُثيرت. تجعله يضع على عاتق البحث العلمي والفلسفي مهمة التأصيل النظري لمفاهيم حاسمة ، تناوبت مع بعضها البعض ، على صياغة موضوع تاريخ الفلسفة وتحديد مفهومه ، وتالياً الحقب و الفترات التاريخية التي تموضعت فيها علاقة مفهوم الفلسفة وتاريخها . فالمثالية كانت قد غدت لدى فويرباخ ، فلسفة الماضي ، في حين شكلت المادية فلسفة المستقبل ، إلا أن هيغل كان منذ زمن بعيد قد أشار إلى أن الماضي هو جانب من جوانب التاريخ ، في حين رأى ماركس أن الفاعلية هي التاريخ ، وبين هذا وذاك تأصّل النقد لمادية فويرباخ .

[69] – فويرباخ، لودفيغ، فلسفة المستقبل، مصدر مذكور، ص 322.

[70] – المكان نفسه.

[71] – ماركس، إنجلز، مختارات، ج4، مرجع مذكور، ص39.

المراجع:

1-فويرباخ، لودفيغ، مبادئ فلسفة المستقبل، ت : الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت ، 1975 .
2-فويرباخ، لودفيغ، أطروحات مؤقتة من أجل إصلاح الفلسفة، ت الياس مرقص، دار الحقيقة ، بيروت، 1975 .
3-فويرباخ، لودفيغ، أصل الدين. ت: أحمد عبد الحليم عطية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، بدون تاريخ.
4-خليفة، فريال حسن ، نقد فلسفة هيغل ، دار التنوير، بيروت ، 2006 .
5-سبينوزا، بندكت دي، الأخلاق. ت:جلال الدين سعيد، دار الجنوب، تونس، 1997.
6-سبينوزا، بندكت دي، رسالة في اللاهوت والسياسة، ت: حسن حنفي، دار التنوير ، بيروت،2005.
7-شاخت، ريتشارد، الاغتراب ، ت: كامل يوسف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980 .
8-شاتليه ، فرانسوا، هيغل ، ت: جورج صدقني، منشورات وزارة الثقافة ، 1970.
9-كورنو، أوغست ، أصول الفكر الماركسي، ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الآداب ، بيروت ، 1968.
10-لوفيت، كارل، من هيغل إلى نيتشه ، ت: ميشيل كيلو، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1988، .
11-لينين، الدفاتر الفلسفية، ت: الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، 1983، ج1، ط4.
12-لينين ، الدفاتر الفلسفية ، ترجمة : الياس مرقص ، دار الحقيقة ، بيروت ، ج 2، ط2 ، 1983.
13-ماركس ، كارل ، أنجلز ، فريدريك ، الإيديولوجيا الألمانية ، ت: فؤاد أيوب ، دار دمشق ، بدون تاريخ .
14-ماركس ، كارل ، مخطوطات 1844، ت: محمد مستجير مصطفى ، دار الثقافة الجديدة ، 1974.
15-ماركس، إنجلز، مختارات، ت: دار التقدم، دار التقدم ، موسكو ، بدون تاريخ، ج1.
16-ماركس، إنجلز، مختارات، ت: دار التقدم،دار التقدم ، موسكو، بدون تاريخ، ج4.
17-ماركس،كارل ، إنجلز، فريدرك ، الأسرة المقدسة أو نقد النقد النقدي، ت : رزق الله هيلان، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، 1975 .
18-Feuerbach, Ludwing, Essence of Christianity, translated, by Zawar Hanafi, Ancher Books, NewYork,1972.
19- Eugen, kamenka ,the philosophy of Ludwig Feubach, London, Routledg 1970.